إسهامات الشاعر محمد العيد آل خليفة في تحقيق البنية الإصلاحية (مختارات من شعره)

الأستـاذة: حميدة قادوم
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي

الملخَّـص:

توسعت الحركة الإصلاحية بالجزائر إبان فترة الاحتلال الفرنسي، وشملت مختلف مناحي الحياة بما فيها الأدب، فكان الشعر من أهم أسلحة الفكر الإصلاحي ووسيلة لليقظة الدينية. وكان الشاعر(محمد العيد آل خليفة) من أبرز شعرائها الذين دافعوا عن مقومات الشعب الجزائري وعن مبادئ الدين الإسلامي، فجاء شعره معلما ومرشدا ومنورا للعقول، ودرعا واقيا في وجه البدع والخرافات التي عمل المستعمر على نشرها. ويحاول هذا المقال رصد مختلف الانجازات التي حققها شعره، وتتبع إسهاماته في تحقيق البنية الإصلاحية على جميع الأصعدة.

الكلمـات المفتاحيـة: الاستعمار – الانحلال الأخلاقي- الشعر الإصلاحي.

Les contributions du poète mouhammed El Aid Al Khalifa dans la constitution de la réformation

Résumé:

Le mouvement de la réforme s'est propagé en Algérie durant le colonialisme, touchant à touts les domaines de vie et même la littérature. La poésie était l'un des plus importantes armes de la pensé réformatrice et de la vigilance religieuse. Le poète Mouhammed El Aid Al Khalifa était l'un des plus éminents poètes qui ont défendu les principes du peuple algérien ainsi que ceux de la religion islamique. Sa poésie était une lumière qui guide et éduque les pensées et un bouclier protecteur face aux hérésies et superstitions que le colonialiste a toujours taché de les annoncer.

Cet article à pour but d'observer les différentes réalisations de sa poésie et de suivre ses contributions dans la constitution de la réforme dans touts les domaines.

Les mots clefs : le colonialisme, la décadence morale, la poésie réformiste.

The role of the poet Mohammed Eid al Khalifa to the achievement of the reformist structure. (some of his poetry)

Abstruct :

Expanded reform movement circle in Algeria during the French occupation period, and included various walks of life, including literature, was the hair of the most important weapons of this movement and as a means of religious awakening, and the poet (Mohammed Eid Al Khalifa) of the most prominent poets who fought all the elements of the Algerian people and defended the principles of religion Islamic, It was his poems editor and anti-exploitation and slavery, and a mentor and a teacher of the Algerian minds, and a reformer on the Ethics of community sought colonialism on the destruction of its infrastructure was as a shield from various fads and myths that chives work published.

This article is trying various achievements of the hair is to monitor trace his contributions to the achievement of the reformist structure of the islands at various levels.

Key words: ignorance and colonial- Colonialism and exploitation of ignorance Poems reform.

1-بسط منهجـــي:

شغل الشعر مساحة واسعة في تاريخ الأدب العربي، مصورا الحالات النفسية وانفعالات النفس البشرية تجاه مختلف الظواهر. ومع تقدم العصر وتطور الأحداث وكثرة الاضطرابات التي يشهدها الإنسان العربي، تفطن الشاعر إلى وضعه الراهن ووجد نفسه مسؤولا مثله مثل غيره عن المجتمع الذي ينتمي إليه، فكتب أشعارا ذات طابع اجتماعي سعى من خلالها إلى تحسين الأوضاع السائدة والمشاركة في الدفاع عن أرضه ووحدة شعبه ومقوماته.

وعلى هذا الأساس ظهر الشعر الإصلاحي في الجزائر متزامنا مع وجود الاستعمار الفرنسي الذي حاول – بشتى الطرق– طمس الهوية الوطنية والقضاء على الدين الإسلامي.

وعليه ستحاول دراستنا هذه البحث عن إسهامات (الشاعر محمد العيد آل خليفة) في تحقيق البنية الإصلاحية بالجزائر والمتمثلة أساسا في: إصلاح العقيدة وإصلاح حال الشباب وإصلاح حال المرأة الجزائرية وإصلاح التعليم والوعي الثوري.

وقد خلصنا في نهاية البحث إلى تحديد الخصائص التي طبعت شعر (محمد العيد آل خليفة) خاصة والإصلاحي عامة.

2- نشأة الفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي:

شهد التاريخ منذ زمن بعيد ظهور الدين الإسلامي الذي ألف بين الناس جميعا دون تفرقة، لا من حيث الجنس ولا من حيث اللون ولا من حيث الرقعة الجغرافية، وجعل المسلم أخو المسلم يحفظه ويتعاون معه على صعوبات الحياة. فتمم بذلك مكارم الأخلاق، ودعا إلى التآزر والتآخي في الله.

وقد أخذ مهمة نشر مبادئ هذا الدين السمح، سيد البشرية وقائدها النبي الأمين (محمد صلى الله عليه و سلم) ومن بعده الصحابة و السلف الصالحين – رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين- فتوالت بذلك الفتوحات الإسلامية في مختلف أقطار العالم من أجل نشر هذا الدين الذي لا تكتمل سعادة البشر إلا به، وتصلح به أحوالهم وتعلوا بدستوره مكانتهم.

وقد شهد التاريخ هذا الدين " في عنفوان شبابه وتهيؤ أسبابه وازدخار عبابه، فشهد له بالفضل الأتم، والخير الأعم للبشر كلهم- بل له أبنائه المتبعين لشرائعه – وشهد أن سلف هذه الأمة ما لمسوا حاستي السعادة إلا به، وما كانوا أساتذة الكون إلا بهديه، ولا دانت لهم المشارق والمغارب إلا

بالتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه، ثم نشر تلك الآداب وتلك الأخلاق على الأمم"[1] .

ولا شك أن ما أصاب العالم الإسلامي من اضطراب وتفسخ في العلاقات الاجتماعية وغرقه في المصائب، إنما سببه بعده عن هذا الدستور الذي نظم حياة أجيال كثيرة سبقت هذا الجيل. ولولا وجود رجال صالحين ترعرعوا في ظل تعاليم القرآن العظيم، واتبعوا سنة خير الأنام المصطفى الكريم، وقرؤوا مؤلفات السلف الصالحين لأذهب الله عنا هذا النعيم الذي لم يحافظ عليه إلا من اتقى من الرجال العظماء، الذين تنبهوا للخطر الذي داهم الأمة الإسلامية من حروب وكوارث نجمت عنها ظواهر اجتماعية خطيرة كالجهل و الفقر و التجويع، و انحلال الأخلاق وتفشي البدع والخرافات، واغتصاب الأراضي الإسلامية.

فتنبه هؤلاء الرجال إلى ضرورة إصلاح المنظومة الإسلامية بصورة عامة، وهذا ما مهد لظهور "الفكر الإصلاحي " الذي سعى إلى الإصلاح في مختلف مناحي الحياة، في مقدمتها الإصلاح الديني لما له من إسهام كبير في تحقيق بقية الإصلاحات الأخرى." فالإسلام في جوهره لإصلاح عام من الله به على العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية غارمة اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ركبها رب العالمين، وما فيه من أخلاق قيمة وشرائع عادلة قررها الهداة من الأنبياء المرسلين والحكماء المصلحين."[2]

ولا يخفى أن أول من تنبه إلى فكرة الإصلاح في العالم العربي بعد الشيخ (السيد جمال الدين الأفغاني)*[1] هو إمام المصلحين الأستاذ (الشيخ محمد عبده)*[2] الذي أكد على ضرورة الرجوع إلى كتاب الله وهدي نبيه لأن "علة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطه عن تلك

المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن هي بعدهم ذلك الهدي الروحاني الأعلى، وأنه لا يرجى لهم فلاح في الدنيا ولا في الآخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المآل، ولا عزة جانب، ترد عنهم عادية الغاصبين من الأجانب، إلا إذا راجعوا بصائرهم، واسترجعوا ذلك الهدي الذي لم يغصبه منهم غاصب ،وإنما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالاضطرار فباءوا بالمهانة والصغار، والضعة والخسار."[3]

وقد رأى الشيخ (محمد عبده) أن يكون الإصلاح الديني في المقدمة لأنه السبيل لإصلاح المجتمع، وتحقيق حياة أفضل للإنسان "وقد كان الناس قبل القرآن على جهل مطبق بهذا الاستعمار الفكري حتى بينه القرآن الكريم ووضع قواعده وأرشدها لأول مرة في التاريخ أن الإنسان أخو الإنسان لا سيده ولا عبده، وإن فضله في المواهب، وأن تساوي الناس في استعمار الأرض تابع لتساويهم في النشأة وهذا تقرير لمبدأ المساواة وهو المبدأ الذي لم يسبق الإسلام إليه سابق. ولم يلحقه فيه لاحق وإن زعم المتبجحون ..." [4]

وتوالت إسهامات الشيخ بالرغم من الصعوبات التي لاقاها من قبل أعدائه، ولم توقفه ادعاءاتهم الباطلة، وواصل مسيرة الإصلاح التي بدأها إلى أن وافته المنية ، فأكمل مسيرته تلامذته الأبرار. فكان تلميذه الأكبر (السيد محمد رشيد رضا)*[3] أول من حمل راية الإصلاح بعده، فبدأ من حيث توقف الشيخ، غير متنكر لفضله، مشيدا بمسيرته الإصلاحية، فما كان له إلا أن "جمع تاريخ حياة الإمام فكان أضخم عمل استقل به فرد وليس تاريخ الأستاذ الإمام بالأمر الهين الذي يقوم به فرد لو لم يكن ذلك الفرد رشيدا"[5] كما انشأ مجلة المنار التي ذاع صيتها في الأقطار العربية، واتسع عدد قرائها. ونظرا لتتبعه نهج الإمام فقد أحدث انقلابا فكريا في فهم الدين

وعلاقته بالأمور الدنيوية، فأقام شرائع الدين وحارب البدع ودعاة التدجيل والشعوذة، لذلك قال عنه الإمام (البشير الإبراهيمي)*[4] أنه "كان طول حياته بلاءا مسلطا على طائفتين: دعاة التدجيل من المسلمين ودعاة النصرانية من المسيحيين، فلم نعرف في التاريخ من فضح الطائفتين شر فضيحة غير الأستاذ رشيد."[6]

3- موضوعات الشعر الإصلاحي عند (محمد العيد آل خليفة)*[5]:

توسعت دائرة الحركة الإصلاحية بالجزائر وانتشرت في مختلف مناحي الحياة و شملت الناحية الأدبية" فكان الشعر من أهم أسلحة الفكر الإصلاحي، ووسيلة ليقظة النهضة الدينية."[7] وأصبح مفهومه ووظيفته "تحمل الشاعر أمانة و مسؤولية عظيمة تجاه كلمته، وتذم القول دون العمل، وتفاخر بالشعراء الذين جعلوا الكلمة أداة جهاد،لأنهم يقدمون للناس عملا ايجابيا نافعا يعالج مشكلاتهم و يتصل بحياتهم ويعبر عن همومهم..." [8]. فظهرت أسماء لامعة اتخذت التوجه الإصلاحي سبيلا لها مثل الشاعر (محمد عبد القادر السائحي) و(محمد المولود بن الموهوب) و (محمد الهادي السنوني الزاهري) و (أبو القاسم سعد الله) و(محمد العيد علي خليفة) وغيرهم كثر.

أ- إصـــلاح القعيدة:

لعل أهم جانب ركز عليه شعراؤنا من أجل تحقيق الإصلاح هو الجانب الديني لأن الدين "إضافة إلى كونه حسا ذهنيا، وشعورا روحيا فإنه منهج لممارسة الحياة الإنسانية في مستوى من مستوياتها الراقية"[9].

وقد شهدت الجزائر في تلك المرحلة انتشارا واسعا لدعاة العلم الغيبي والشعوذة والتدجيل كما شهدت انحطاط قيمة المقدسات الدينية لدى كثير من الناس. وهذا ما دفع الشعراء إلى نظم القصائد التي تسعى بالدرجة الأولى إلى

تصحيح معتقدات الناس وتنبيههم إلى الخطر الناجم عن ذلك، يقول الشاعر (محمد العيد آل خليفة):

يَــا أُمَةَ جَهَــلَتْ حَقِيقَــةَ دِيْنَهَا فَتَفَرَّقَــتْ فِيْها إِلَى أَشْيَـــاعِ
العَاصِفُ الزَعْزَاعُ مِنْ أَهْوَائِهــَا يَشْتَدُ إِثْرَ العَاصِفِ الزَعْزَاعِ
فِي القاعِ مَــاءٌ كَيْفَ شِئْتِ مُبَارَكٌ فَرُدِيْهِ وَاطْرَحِي سَرَابَ القَاعِ[10].

لاشك أنّ أهم خطر يعصف بأمة جهلت دينها ، هو تشتت وحدة أبنائها وتفرق شملهم وهذا ما يؤدي إلى انتشار الفتن وتدهور الأوضاع. لذلك نجد أنّ أغلب الشّعراء قد اقتصروا على الجانب الديني،إيمانا منهم أنّه إذا صلح الدّين واستقامت عقيدة الشعب صلح المجتمع كله، يقول :

أَفِيْقُوا فَهَذَا الدِّيْنُ بَيْنَ رُبُوْعِكُمْ تُنَازِلُــهُ الأَحْــدَاثُ شَــرَ نزَالِ
تُحــَوِلُ نَكْبَاءُ الضَّلاَلَــةِ نَسْفَــهْ وَتَرْمِيــْهِ أَشْلاَءُ الرَدَى بِنِبــَالِ
فَقُــومُوا مَقَامَاتَ الْدِّفــَاعِ حِيَالَهُ لِيَأْمَنَ هَذَا الْدِّينُ كــُلَّ ضَــلاَلِ
وَلاَ تُهْمِلُوا أَمرَ الْحَيــَاةِ فَإِنَّهَــا حَيَاةُ نَشَاطٍ بَلْ حَيَاةُ جِدَالِ.[11]

تتضمن هذه الأبيات توجيها مباشرا لأبناء الشعب في خضم التداخلات والتطوّرات التي شهدتها البلاد، فجاءت في صيغة الأمر (أفيقوا، فقوموا) من أجل بث الوعي الديني والدفاع عن الإسلام ومبادئه، التي تحقق السعادة والهناء وتدعوا إلى التكافل والتضامن بينهم فشعراء الإصلاح الديني رجال متشبعون بالخلفية الدينية الإسلامية حافظون لكتاب الله،لذلك نجدهم يستقون ألفاظهم من القرآن العظيم والشاعر الإصلاحي "لا ينسى لحظة واحدة وفي أية قصيدة أن يتحدث عن القرآن والسنة، لأنهما المبدأ والمنتهى، وهما الأساس الذي بنيت عليه الفكرة الإصلاحية"[12] ومرد هذا إلى جملة البدع والخرافات الوهمية التي انتشرت في البلاد، ومن بين البدع التي ظهرت في الجزائر أيام الاحتلال (صلاة الأربعاء الكحلة) يجتمع فيها الناس خلف الإمام

ويقرؤون أدعية خاصة، وكانوا يعتبرونها أفضل من صلاة العيدين، كما ظهرت (الزردة) أو كما يسميها البعض (العيساوية) وهي من البدع التي ظهرت لدى بعض الطرق الصوفية، فنبه الشعراء لهذه الظواهر واعتبروها شركا بالله وزاد إصرارهم على التحذير منها.

يقول الشاعر في قصيدة (كلمة في الرسالة):

وَاحْذَرْ شِرَاكَ الشِرْكِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ شَتَــى المَظَاهِرِ جَمَّةُ الأَنــوَاعْ
كــمْ وَاقــعٌ فِيْهَا وَيَحْسَبُ أَنَّــهُ فِي الْدِّيْنِ حُرُ الْعَقْدِ رَحــبُ الْبَاعْ
الشِــرْكُ دَاءٌ فــي الْبَرِيــةِ كَامِــنٌ مُسْتَفْحــلُ الأَضْرَارِ وَ الأَوْجَاعْ
الشِرْكُ سِتْرٌ حِيْكَ مِنْ نَسْجِ الهَوَا غَطَى عَلَى الأَبْصَارِ وَ الأَسْمَاعْ.(13)

لعلَّ هذه الأبيات بمثابة رد الفعل المعارض والمستنكر لكل البدع التي ظهرت، نظرا لما تعود به من ضرر على متبعيها وتحث المتلقين على التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وبالطاعات. فنجده في قصيدة (يا ابن الليل) يربي الأنفس على قيام الليل وما فيه من فائدة بدنية وروحية للنفس المؤمنة، فيقول:

قِيــامُ اللَّيــلِ حُلِيَــةُ كــلُ بــــرٍّ بِبــابِ الله قــامَ لــهُ خَدِيْمــا
إِذَا جَــنَّ الظَّــلاَمُ عَلَيــــهِ أَغْفَى وَقَامَ يُسَابــقُ اللَّيــلَ إِلَيْهُمــا
بِنــافِــلــةٍ يُطِيــلُ بِهَا قِيــامَــــا قــرْآنٌ يُرَتِلــــهُ قَوِيْمــا(14)

يبدو أنّ الشاعر يحاول أن يطبق المبادئ التي رسمت معالمها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، التي كان عضوا فيها، فهي تركز الاهتمام على تصحيح العقيدة الدينية وتعلم العلوم والحفاظ على اللّغة العربية كلغة رسمية للبلاد. كما تنصح بالعودة إلى التاريخ وإلى عظماء الزمن الماضي "لا من أجل الانغلاق على الذات وتقديس الأجداد، و تمجيد الماضي والحنين

الرومانسي إلى إعادته، بل لمساءلة الذات من خلال مساءلة الماضي والوقوف على الخصائص المميزة، و الهوية الخاصة." [15] فيقول:

يَا شَعْـبَ قُمْ عَلَـى الْهُمُـــو مِ وَالْشؤُومِ ثَـــائِـــرَا
يَا شَعْـــبَ جَـدَّ الْجِدُّ فَـانْ هَضْ وَاكْسِبِ الْمَفَاخِرَا
يَا شَعْبَ رِضْ بِالصَّالِحَـــا تِ أَرْضكَ الْجَـــزَائِـــرَ
وَاتْبعْ بِهَـــا مَعَالِـــــمَ الأَ جـدَادَ وَ الْمَآثِـــــــرَا
قَدْ أَنْجَبَتْ وَ تُنْجِـبُ الأَ حْرَارَ وَ الْـحَرَائِرَا[16]

يستخدم الشاعر في هذه الأبيات أسلوب التفاخر لتذكير الشعب بأنه ينحدر من نسب طيب عرف على مر العصور بالشجاعة والإقدام (واتبع بها معالم الأجداد والمآثر)، (قد أنجبت وتنجب الأحرار والحرائر)، جاعلا بذلك سر انتصارهم بتتبع نهج الأجداد.

ب- إصـــلاح حال الشبـــاب:

لم ينحصر الشعر الإصلاحي عند محمد العيد في تصحيح الاعتقاد بالله فحسب، بل شمل الأخلاقيات فنظم قائلا:

الخُلُـقُ تَخْلِيـَةٌ وَ تَحْلِيـَةٌ وَمَـا أُسُ الْفَضَائِلِ غَيْرَ تَرْكِ الـذَّامِ
مَا عَزَ مُجْتَمَعٌ يَعِيـــشُ شَبَابُـهُ مُتَسَكِعـَا فِي الْطُـرق كَالْأَنْعَامِ
يَغْشَى الْمَخَامِرَ وَ الْمَقَامِرَ بُكْرَةً وَعَشِيـَّةً وَ يَعـُومُ فِي الْآثَـامِ
يَرْمِـي بِألَحـَاظٍ وَ أَلْفَاظٍ مَعـَا مَا عَنَ فِي السَاحَاتِ مِـنْ آرَامِ
كَـمْ مَرْتَعٌ لِلصَّيـْدِ حَالَ بِهِ فَتًى فَنَجَتْ رَمْيَتُه وَ صُيِّدَ الرَّامِي[17]

فالأخلاق أساس عزة المجتمع وسبب من أسباب صلاحه وتقدمه وهذه الفكرة من أهم الأفكار التي دعت إليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعدما انتشرت أم الخبائث بين شباب المسلمين الجزائريين بسبب

محاكاتهم للمستعمر، وهنا يبرز دور الجمعية في محاولة القضاء على هذه الظاهرة " ولا يحصى عدد الذين تأثروا بمواعظها فأصبحوا يحافظون على الصلوات بشروطها الحسية و المعنوية،ولا عدد الذين هجروا أم الخبائث " الخمر" بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسة بارزة ضج لها تجار الخمر و تنادى بائعوها بالويل و الثبور وتعالت أصواتهم بالتذمر ،كما تعالت أصوات مشايخ الزوايا و سدنة القبور." [18] وقد تناول الشاعر هذه الظاهرة في مواضع كثيرة أهمها ما قاله في قصيدة "الخمر" التي يعدد فيها صفاتها وعواقبها، فيقول:

الْخَمْـــرُ شُـــــرْبَـــةٌ رِجْـسٌ أُمُ أَرْجـــــاسِ
الْخَمْــرُ صَاعِقَةٌ تَهْوِي عَلَى الـــــرَاسِ
الْخَمْـــرُ مِحْنَةُ سُـــوْءٍ مَـــنْ أُصِيْـــبَ بِهـــَـا
أُصِيْـــبَ فِي كُلِ وَعْـــيٍ مِنْهُ حَسَـــــاس
الْخَمْـــرُ فـــَـاسُ خَـــرَابٍ هَدَّمَتْ أُســـــرًا
مَصُونَةً عَاثَ فِيْهَا صَاحِبُ الْفـــَاسِ
يَا شَـــارِبَ الْخَمْرِ مَا تَرْجـــُوهُ مِنْ دَرَنٍ
لِلْعِرْضِ غُولُ عُقُولٍ لـــِصُ أَكْيـــَـــاسِ. [19]

يحاول الشاعر في هذه الأبيات أن يصف الخمر بأبشع صورها حتى ينفر النفوس منها ويحث على تركها، فيستعمل أسلوب التكرار من أجل تأكيد التصاق الصفة بالموصوف، ويكررها ست مرات في المقطع نفسه. وهذه التقنية يلجأ إليها الشعراء من أجل زيادة لفت الانتباه والتأكيد على فكرة واحدة، فالخمر رجس وأم أرجاس وهي محنة سوء وظلام للنفوس .

ج- إصلاح حال المرأة الجزائرية:

ومن الظواهر الأخرى التي شغلت تفكير الشاعر إصلاح حال المرأة الجزائرية بعدما وصلت إليه من انحلال أخلاقي استهدفته السلطات الاستعمارية باسم التقدم و التحرر فيقول في قصيدة " فتاة العصر":

مَا بـــَالُ سَيْرُ فَتـــــَاةُ الْعَصْرِ مُنْحـــَرِفـــَا
يَهْوِي بِهَا فِي مَهَاوِي الإِفْكِ وَ الْزُّورِ
إِنَّ الـــْجَزَائِرَ أَمْسَتْ بِنْتُهَـــا عَـــــرْضًـــا
لِكـــُلِ رَامٍ بِسَهْـــــــمِ الْغـــَيِ مـــَأْجُورِ
مَا بـــــَالُهـــَا هَجـــــرَتْ آدَابَ مِلَتـــــهَا
مَا بَالُهَـــا أَعْرَضَـــتْ مِنْ خَيْرِ دُسْتَورِ[20].

تبين هذه الأبيات أنَ الفتاة الجزائرية ليست بحاجة إلى من يعلمها الثقافة و التَحضر، فقد علّمها كتاب الله، وليس هناك من أعطى المرأة حقوقها غير الإسلام الذي حرّرها منذ زمن بعيد من العبودية و الاستغلال، وأنّ ما يدعوا إليه هؤلاء الصّليبون ما هو إلا إفك جاؤوا به باسم الحرية ،وهذا حتى يصاب أهم عنصر يقوم عليه المجتمع. لذلك يحاول الشّاعر تقويم أخلاق الفرد من خلال تقصي مختلف الأمراض والآفات التي عمّت المجتمع الجزائري في تلك الحقبة الزمنية.ومن بين الآفات الأخرى التي تنبه لها الشّاعر انتشار الفقر وصعوبة الحصول على لقمة العيش وارتفاع نسبة البطالة، وهذا ما أثار غضب الشاعر فصرخ قائلا:

فَشَـــا الْجُوعُ وَاشْتَدَ عُسْرُ الْمَعَاشْ وَعـــَادَتْ سَنُو يُوسُفَ الغَابِرَه
وَعـــَمَ الْكَســـــَادُ عُرُوضَ الْبـــلاَدْ فَسَائـــرُ صَفْقَاتِهَا خَاسِـــــرَه
وَوَدَّ غَرِيـــقُ الْدُّيـــــُونَ الْخـــَلَاصْ فَعـــَاقَتـــْهُ أَمـــْوَاجُهَا الغَامِرَه
مَتَى تَجـــِدُ الشُّغـــــْلَ أَيْدِي العِبَـــادْ مَتَى تُنْفـــَقُ السِّلـــْعُ البَائِرَه[21]

فجاءت هذه الأبيات تعبيرا عن مدى استياء الشاعر من الوضع الكارثي الذي وصلت إليه البلاد بسبب الفقر وسياسة الاحتكار التي عانى منها الشعب الجزائري لفترة طويلة، ولشدة تأزم الوضع يشبهها بسنوات القحط والجوع التي شهدها الناس في عهد يوسف عليه السلام (وعادت سنو يوسف الغابره)، كما استعمل الشاعر ألفاظ وعبارات أخرى تنبؤ بالظلم و الجور(عم الكساد، غريق الديون، علام يهين القوي الضعيف...). وهنا يظهر دور الشاعر الإصلاحي في إيقاظ الوعي وحث الأفراد إلى ضرورة التحرك نحو تحسين أوضاعهم، والمبادرة بالثورة.

د- إصـــلاح التعليم:

سعى الشاعر إلى إيقاظ الوعي الفكري من خلال الترغيب في التعليم ومحاولة القضاء على الجهل، فدعا إلى بناء المدارس والمعاهد والأندية والجمعيات التي تخدم الأهداف الوطنية وتساهم في الدفاع عن الهوية والانتماء العربي الإسلامي، وأشاد بدورها جميعا في تحقيق الصلاح التعليمي بالجزائر، فيقول في قصيدة نظمها بمناسبة افتتاح مدرسة (دار الحديث) بتلمسان سنة 1937:

أُحَيِـــي خَيـــرَ مَدْرَسَةٍ بَنَاهَـــا خِيـــارٌ فِي مَعُونَتِهـــــمْ خِيَارُ
تِلِمْسَانُ احْتَفَـــتْ بِالْعِلْمِ جَـــارًا وَمَا كَالعِلْمِ لِلْبُلْـــــدَانِ جَـــارُ
لَقَدْ لَبِسَتْ مِنَ الإِصْلاَحِ تَاجـــًا يَحـــقُ بِهِ لأَهْلِيْهَـــا الفَخَارُ
فَكَانَ لـــهُ بَهـــا نَصْرٌ وَ فَتْـــحٌ وَكَانَ لـــهُ ذُيُـــوعٌ وَاشْتِهَارُ[22]

كما يحث الشباب على العلم ،مشيدا بمدينة (تلمسان) وما وصلت إليه من تقدم وإصلاح، فالعلم أساس التقدم و الازدهار توعية وما الجهل إلا قيد من القيود التي تعيق تقدم المجتمعات لأن الشعراء جميعهم "أرادوا أن يحيوا حياة حرة شريفة ناعمة .فكان شعرهم كله حماسة و ثورة، ثورة على الجهل

والفقر والمرض والحياة الاجتماعية القذرة، ثورة على العدو وعلى ما يرون من أذى."[23] فيقول:

الْعِلْمُ صَرْحٌ مَجـــادَةٌ وَسَعَادَةٌ وَمِنَ التَّعَلُّـمِ شُيِّدَ رُكْنُ قَوَامِهِ
وَالعِلْمُ لَمَـــا تَنْحَصِرْ أَفْهَامُهُ فَتَنَافَسُـوا يَا قَـوَمَ فِي أَفْهَامِهِ
وَالْعِلْـمُ أَعْمَـالٌ تُزَاوِلُ لا مُنًى تُنْوَى فَسِيرُوا فِي هُدَى أَعْلَامِهِ
وَلَرُبَّ غُر ظَلَ يَرْقَـبُ لَيْلَـهُ يَرْجُو اسْتِقَاءَ الْعِلْمِ مِنْ أَحْلاَمِهِ[24]

د- الوعـي الثـوري:

كان للشعر الإصلاحي دور بارز في إيقاظ الوعي الثوري ومساندة الحركات الشعبية" بالتوجيه وبالنداء إلى مقاومة الاستعمار المقنع والرجعية والصهيونية، فلا يسلم من نبالهم أي أحد تسول له نفسه الوقوف في طريق الشعب إلى العلا، و الشعب دائما في حاجة إلى من يذكي وعيه ويقوي إيمانه وشعوره بالمسؤولية [25]. يقول الشاعر مخاطبا الشعب:

يَا قَوْمَ هُبُّـوا لاغْتِنَامِ حَيَاتِكُمْ فَالعُمْرُ سَاعَـاتٌ تَمُرُ عُجَالاَ
الْأَسْرُ طَـالَ بِكُـمْ فَطَالَ عَنَاؤُكُمْ فُكُّوا الْقُيُودَ وَحَطِّمُوا الأَغْلاَلاَ
وَالْشَعْبُ ضَجَ مِنَ المَظَالِمِ فَانْشِدُوا حُرِيَةً تَحْمِيْهِ وَاسْتِقْـلاَلاَ
لاَ أَمْنَ إلَا فِي ظِلَالِ مُرَفْـرَفٍ حُـرٍ لَنَا عَالٍ يُنِيـرُ هِلاَلَا[26]

تتضمن هذه الأبيات دعوة صريحة للثورة على الاستعمار الذي طال ظلمه و ظلامه، فالحرية تؤخذ بالقوة ولا تعطى، وفي سبيل إيقاظ الحس الثوري وتعزيز العزيمة لجأ الشاعر إلى الإشادة بقوة الشعب و تذكيره بالانتصارات التي حققها من قبل خاصة في عهد البايات فيقول:

وَاذْكُـرْ أَوَائِلَهَـا بَنِي فِيْنِيقِيَـا وَاذْكُرْ بِهَا الرُّومَانَ وَ الوَنْدَالاَ
وَاذْكُرْ بِهَـا أَتْرَاكَهَـا وَإِنْ اِعْتَدَوا حَالًا فَقَدْ حَرَسُوا الرَّعِيةَ حَالاَ

وَاذْكُــرْ مِنَ البَايَاتِ (أَحْمَد) إنَّــهُ ذَا العَدَى عَنْهاَ وَبَنَى بِهاَ فَأَطَالَا
وَاذْكُرْ بِدَخْلَتِهَا (ابنَ عِيسَى) ثَائِراَ يَلْقَى المُغِيرِ وِ يَسْتَمِيتُ قِتَالاَ[27]

وقد لقيت هذه المساهمات التي قدمها الشعراء صدى واسعا في أوساط الشعب الجزائري فبادروا بالعمل و الثورة، وساندوا بعضهم البعض، وتأسست الجمعيات العلمية و الحركات السياسية، وزادت ثقة الشعب بنفسه، وبدأ يعي حقيقة الوضع الذي يعيشه، واستمرت حركة الشعر الإصلاحي السياسي تنشط إلى أن قامت الثورة المجيدة وكللت بالنجاح والانتصار. وهكذا تمكن الشعر الإصلاحي من مواكبة جل القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية و الثقافية التي عرفها المجتمع الجزائري منذ بداية الحركة إلى غاية تحقيق الاستقلال.

4- خصائص الشعر الإصلاحـــي: بعد تناول عدد من القصائد الإصلاحية للشاعر(محمد العيد آل خليفة) يمكن حصر الخصائص العامة للشعر الإصلاحي في:

1- البساطة في التعبير والوضوح والجنوح إلى الخطابية والمباشرة، يقول عبد الله الركيبي: "والواقع أن الخاصية البارزة في الشعر الإصلاحي أنه شعر تغلب عليه المباشرة وتسوده تلك النبرة العالية، وأنه شعر أنشئ ليلقى على المنابر."[28]

2- التضمين، وهو أكثر ما يميز شعر الإصلاح"بل إن شعرائنا ضمنوا أبياتا من شعراء النهضة في العالم العربي أمثال شوقي وأحمد عبد المطلب والرصافي"[29].

3- الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

4- استعمال أسلوب التكرار سواء من أجل لفت الانتباه أو من أجل التأكيد على فكرة معينة يريدها الشاعر لأن "الشاعر الإصلاحي كان دائم البحث عما يلفت نظر الآخرين، يستثيرهم وينبه أذهانهم بصيغ فخمة تلفت الانتباه." (30)

5- وحدة البيت ووحدة الموضوع نتيجة الأسلوب المباشر وطول القصائد، فكان الشعر الإصلاحي في بدايته قريبا جدا من الشعر التقليدي.

6- استعمال النداء من أجل لفت الانتباه وإيقاظ الضمير الذي يؤدي إلى إيقاظ الوعي الثوري و الحماسي.

خاتمـــة:

ساهم النص الشعري الإصلاحي مساهمة فعالة في تحسين أوضاع المجتمع الجزائري خاصة إبان ثورة التحرير الكبرى، ويبرز أثرها في توعية الشعب وزيادة الحماسة لدى الثوار، كما ساهم في القضاء على البدع والخرافات، وبعض العادات التي نشرها المستعمر في مجتمعنا. واستمر الشعراء في نشر الفكر الإصلاحي حتى بعد بزوغ فجر الاستقلال ونيل الحرية.

الهـــوامش:

1- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، ص33 وما بعدها.

2- المرجع نفسه، ص90.

*1- جمال الدين الأفغاني هو مفكر إسلامي، ولد بأفغانستان، من مؤلفاته: تاريخ الأفغان، رسالة الرد على الدهرين.

*2- محمد عبده: أحد رجال الإصلاح ، من مؤلفاته: رسالة التوحيد، تحقيق وشرح " البصائر القيصرية للطوسي".

3- البشير الإبراهيمي، أثار الشيخ الإبراهيمي، ص.110

4- المرجع نفسه، ص89.

*3-محمد رضا رشيد:من رجال الإصلاح، بغدادي الأصل أصدر مجلة (المنار) ليبث أرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي.من مؤلفاته تفسير القرآن الكريم،تاريخ الإمام محمد عبده، الوحي المحمدي.

*4- البشير الإبراهيمي: من أعلام الفكر العربي ورفيق النضال لعبد الحميد بن باديس، عمل نائبا في جمعية العلماء المسلمين ثم رئيسا لها بعد وفاة الشيخ بن باديس.

6- البشير الإبراهيمي، أثار الشيخ الإبراهيمي، ص113.

*5- محمد العيد آل خليفة: شاعر جزائري ، ولد بعين البيضاء بتاريخ: 28 أوت1904، شارك في حركة الانبعاث الفكري بالتعليم والنشر والصحف ..

7- محمد رياض بن الشيخ، بنية الإصلاح في الشعر الجزائري الحديث، مفدي زكريا أنموذجا، إشراف: عبد الوهاب بوشليحة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2008/2007، ص.64

8- المرجع نفسه، ص.26.

9- المرجع نفسه، ص.63.

10- شعراء الجزائر، ديوان محمد العيد علي خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.141

11- المصدر نفسه، ص.13.

12- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1: 1989، ص.572.

13- محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص.140

14- المصدر نفسه، ص.282.

15- محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2002، ص.07.

16- محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص.61.

17- سورة يوسف، الآية.64

18- محمد العيد آل خليفة، الديوان ، ص.264.

19- محمد البشير الإبراهيمي، أثار الشيخ الإبراهيمي، ص.135.

20- محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص.281.

21- المصدر نفسه، ص.279.

22- المصدر نفسه، ص.250.

23- المصدر نفسه، ص.79.

24- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص392

25- محمد العيد آل خليفة، الديوان،ص.502.

26- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص399 وما بعدها.

28- محمد العيد آل خليفة، الديوان ، ص.340.

29- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص.147.

30- المرجع نفسه ، ص.148.

31- المرجع نفسه، ص155.